خليل مردم بك

وكتابه في الشاعر الفرزدق

للأستاذ جليل

— ١ —

العلامة الأستاذ خليل مردم بك (عضو المجمع العلمي العربي) كاتب وشاعر وباحث، وبراعته في نثره ونظمه وبحثه بينة مستعلنة وأقواله المحكمة المنثورة والمنظومة في مجلتيه (الرابطة الأدبية والثقافة) وفي (مجلة المجمع العلمي العربي) وغيرها. ومصنفاته: شعراء الشام في القرن الثالث، والجاحظ، وابن القفع، وابن العميد، والصاحب بن عباد، والفرزدق، وغيرها، فيها الدليل على فضل (الخليل) وهو مُجَلٍّ في الأديبين: أدب النفس، وأدب الدرس. ومستول على الملكتين في الفنين المنظوم والمنثور اللذين «لا تتفق الإجادة فيهما معاً إلا للأقل» كما قال ابن خلدون.

وقد كان هذا السريّ المردنيّ الفاطمي قدم الأسكندرية سنة (١٣٤٤) فعرفناه، وشاهدنا من فضله وعلمه ونبله ما شاهدناه. وفي بحرتنا[1] هذه نظم قصيدته (صلاة الشاعر) وقصيدته (البحر) وقد أملاها عليّ متفضلاً. وبدأ الصلاة:

هَبْ للذكر وصَفْ القدما ثم ولّى وجهه شطر السما
بات في حيرته مستسلما وله دمع على النحر يفيض[2]
لا يفيض

وفي (البحرية) في البحر يقول:

السما منه استمدت غيثها فهو أن يفخر بالجود قمن
أرى أمواجه أنفاسه رُددت بين شهيق وأنين
لم تكن إلا كشعب ثائر شبها حرباً على (المستعمرين)
جحفل يركب منها جحفلاً يتعادى كجنود زاحفين

وليت شعري، ليت شعري ماذا يقول اليوم لو زار الإسكندرية وقد ظهرت عرائس الدأماء[3]، وعم البلاء، وكاد (أبو العيون..) يبخع نفسه مما يرى ويسمع، أو ينقلب مثل المجنون

إنه «أعني الخليل» ليقول عجباً، وينشئ صاحب القصيدة المرقصة (الرقص) للأدباء المتفتين الشياطين اللاعبين — طرباً[1]

اللهم، إن في السيف في الصيف في هذه البحرة لفتنة! فاحفظ — يا رب العالمين — عبيدك وإماءك الصالحين والصالحات، وأظهر اللهم عبديك المجاهدين: شيخ المدينة (حامداً[2]) والشيخ محموداً أبو العيون[3] على الفاتنين والفاتنات؛ إنك القوي القادر، ولا حول ولا قوة إلا بالله

أقام الأستاذ المردني، هذا الأدب الجم والفضل المحسم في الإسكندرية برهة، وزمن لقائه هو الذي عُدّ من العمر. ثم عاد إلى داره، دار الإسلام دمشق

سقى دمشقَ الشامِ غيثٌ مُمرِعٌ[4]

من مستهلّ ديمة دفاقها
مدينة ليس يُضاهى حسنها في سائر الدنيا ولا آفاقها
فأرضها مثل السماء بهجةً وزهرها كالزهر في إشراقها[5]
نسيم ريّا روضها متى سرى فك أخا الهموم من وثاقها
لا تسأم العيون والأنوف من رؤيتها يوماً ولا انتشاقها

وإن كان (أبو عدنان) لم يبرح يقول:

يا ساكني مصر، فيكم ساكن الشام
يكابد الشوق من عام إلى عام!!

فالقوم لم يزالوا يرددون في كل وقت بيتي مهيار

دمشق، إن في دمشق شموس فضل وأدب، أضواؤها مشمة وباهرة، يراها الناظرون من المشرق الأنأى والمغرب الأقصى

هذه مقدمة أمام القول في كتاب الأستاذ المردنيّ الذي أتحف الناس به في هذه الأيام، وهو في الشاعر الإسلامي العظيم (الفرزدق) همّام بن غالب

* * *

جاء في كتاب (الفرزدق): «قال الجاحظ: كان الفرزدق

(١) من ابن الحريري: «فقال لقد هانيت عجبا، وسمعت ما أنشأ لي طربا» في المقامة المنسوبة الى بلدتنا: الاسكندرية وقد ذكر فيها الفرزدق والنوار: «غشيتي نعامة الفرزدق حين أبان النوار»

(٢) هو صديقنا وشيخ بلدنا الأستاذ حامد الشواربي باشا الكريم العربي الفتح ابن الكرام العرب

(٣) قرئ: تبت يدا أبو لهب. قال الكشاف: «كما قيل على بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان لئلا يغير منه شيء فيشكل على السامع» والشيخ أبو العيون هو شيخ علماء الاسكندرية وحرب السابحين والسابحات

(٤) الشعر للسبع بن خلف الأسدي. دفاق على وزن دعاء: المطر الواسع الكثير، وكشداد للمبالغة

(٥) كالزهر: كالنجوم الزهر أي النيرة المضيئة

(١) البحرة: المدينة، يقولون: هذه بحرتنا أي أرضنا وبلدتنا (الفائق)

(٢) أسلم لأمر الله وسلم — بالتشديد — واستسلم (الأساس)

(٣) الدأماء: البحر، مروءة البحر: ضرب من السمك...

راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم . وقال ابن قتيبة : كان الفرزدق معنّا مقنّا[1] »

وقد بيّن الأستاذ أفانين أبي فراس فى القول فى (كتابه) ومن فنونه فى شؤونه ما أورده فى سيرته : « ذكر لنا الرواة أن غالبا أبا الفرزدق دخل على عليّ بالبصرة ، ومعه ابنه الفرزدق بعد عام الجمل ، فقال : إن ابنى هذا من شعراء مضر ، فاسمع منه فقال عليّ : علمه القرآن فهو خير له ، فكان ذلك فى نفس الفرزدق حتى قيد نفسه فى وقت ، وآلى ألا يحل قيده حتى يحفظ القرآن »

وهذه سنة صالحة سنها (همّام) وقد استن بها الأديب الشاعر الوشاح أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى المعروف بالأبيض[2] جاء فى (نفح الطيب) : « سئل الأبيض عن لغة فعجز عنها بمحضر من خجل منه فأقسم أن يقيد رجليه بقيد حديد ، ولا ينزعه حتى يحفظ (الغريب المصنّف[3]) ؛ فاتفق أن دخلت عليه أمه فى تلك الحال فارتاعت فقال :

ريمت عجوزى أن رأتنى لابسا حلق الحديد ومثل ذاك يروع !

قالت : جننتَ ؟ أنقلت : بل هى همة

هى عنصر العلياء والينبوع !

سنّ الفرزدق سنة فتبعتها إنى لما سن الكرام تبيع

وإن أدباء هذا العصر جلهم أو كلهم لمحقوقون أن يتبعوا السنة الفرزدقية فيقيدوا أنفسهم طوعاً أو يقيدوا قسراً حتى يحفظوا ما يجب حفظه ...

وكان الفرزدق على جفائه ذا دعابة ونكتة وجواب حاضر — كما يقول الأستاذ — روى له فى الكتاب هذه النكتة : « مرّ الفرزدق يوماً بمجلس بنى حرام فقال له عنبسة مولى عثمان بن عفان: يا أبا فراس ، متى تذهب إلى الآخرة ؟

قال : وما حاجتك إلى ذاك يا أخى ؟

قال : أكتب معك إلى أبى ...

قال : أنا أذهب إلى حيث أبوك فى النار ؟ أكتب إليه مع ريالويه واصطفانوس »

« أما هوى الفرزدق السياسى فشعره يدل على أنه مع بنى أمية ولكن الواقع أنه مع القول الغالب من قريش » ثم يقول الأستاذ بعد أن أوضح ذلك : « ولعل أدنى الآراء إلى الصواب أن نقول : إن الفرزدق يقول بالعصبية العربية وبالمضرية على القحطانية »

وقد ردّ الأستاذ المردى قولاً أشار إليه بعض من كتب سيرة الفرزدق ، معتمداً — إن كان من أهل العصر — على (المرتضى عليّ بن الطاهر) فى أماليه . وقد أملى الرجل كما أحب وهوى .

وبحث الأستاذ عن أبيات الحزين الكنانى التى اختلطت بأبيات نُسبت إلى الفرزدق يمدح بها (الإمام علياً الأصغر[1]) أحد الأئمة عند إخواننا الإمامية فى خبر ظنى أنه مصوغ[2] . وجبنُ الفرزدق[3] المعلوم لا يحققه . وهل شرد الكميت طويلاً إلا مثل هذا ؟

وأبيات الحزين هى فى عبدالله بن عبد الملك — كما قال الأستاذ وروى عن الأغانى — وقد أخطأ صاحب (العقد) فى قوله إنها قيلت فى بعض خلفاء بنى أمية . ويؤيد قول الأستاذ وأبي الفرج فيمن قيلت فيه ما جاء فى (معجم الشعراء) للامام المرزبانى : « كان الحزين شاعراً محسناً متمكناً ، وهو القائل فى عبد الله ابن عبد الملك ووفد إليه إلى مصر وهو وإليها يمدحه فى أبيات » أورد منها المرزبانى أربعة وأبو تمام ستة منسوبة إلى الحزين الليثى ، وهو الكنانى هذا ، واسمه عمرو بن عبد وهيب . وقد أخطأ ناسخ الحماسة فى كتابته أنها قيلت فى غير من قيلت فيه كما أخطأ التبريزى فى شرحه فى قوله : « ويقال إنها للفرزدق » . وهذا ما اختاره منها أبو تمام :

---

(١) يعنى مفن : مريض — بتشديد الراء — ذو فنون (الأساس) المفن الذى يعارض كل شىء يستقبله (الفائق)

(٢) فى النفح : كان شاعراً وشاحا . هجا الزبير أمير قرطبة فأمر باحضاره وقرعه وقال له : ما دعاك إلى هذا ؟ قال : إنى لم أر أحق بالهجو منك ، ولو علمت ما أنت عليه من المخازى لهجوت نفسك إنصافا ولم تكلها إلى أحد ... فلما سمع الزبير ذلك قامت قيامته ...

(٣) الغريب المصنف ، كتاب فى اللغة وهو لأبى عبيد القاسم بن سلام — كما ذكر ابن خلكان والسيوطى فى المزهر — وقد نسبه صاحب كشف الظنون إلى أبى عمر إسحق بن مرار الشيبانى

(١) فى (نزهة الجليس) للعباس بن على المكى الحسينى الموسوى : علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام ويقال له : على الأصغر ، وليس للحسين عليه السلام عقب إلا منه ، وهو أحد الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام »

(٢) وقد تنوق الصواغ فيما صاغ ؟ ففى (الأغانى) : حج الفرزدق بعد ما كبر وقد أتت له سبعون سنة ، وكان هشام بن عبد الملك قد حج فى ذلك العام فرأى على بن الحسين فى غمار الناس فى الطواف ، فقال : من هذا الشاب الذى تبرق أسرة وجهه كأنه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحى ، فقالوا : هذا على بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم ، فقال الفرزدق : (هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ، الأبيات)

(٣) فى كتاب (الفرزدق) للأستاذ المردى . وكان (الفرزدق) على تبجحه بتمليق الجحاجم وحز الغلاصم من أجبن خلق الله

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم[1]
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم[2]
أي القبائل ليست في رقابهم ... لأولية هذا أوله — نعم
يكفه خيزران ، ريحها عبق ... من كف أروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم[3]

يقول كتاب الأستاذ في الفرزدق : « كان الفرزدق فاسقاً ماجناً خليعاً يشرب الخمر إن وجد إليها سبيلاً » نزل على الأخطل ذات يوم فقال له : أنتم معشر الحنيفية لا ترون أن تشربوا من شرابنا ... فقال الفرزدق :

خفّض عليك قليلاً ... وهات لي من شرابك

ويقول الأستاذ : « لكنه مع ذلك كان حسن الإيمان بالله يقيم الصلوات ، ويعجبه من قومه أن يتدارسو القرآن ويكثروا من تلاوته ، يقر بذنوبه ويستغفر الله لها ، ويخشى عذاب الآخرة ويهجر إبليس الذي يزين له المعاصي ويطغيه . قال المبرد في الكامل : التقى الحسن البصري والفرزدق في جنازة فقال الفرزدق للحسن : أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس . فقال الحسن : كلا! لستُ بخيرهم ولستَ بشرهم ، ولكن ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله وخمس بجائب لا يُدركن — يعني الصلوات الخمس — وقال : كان الفرزدق يخرج من منزله ، فيرى بني تميم والمصاحف في حجورهم ؛ فيسر بذلك ويجذل به . ويقول : إبهٍ فدًى لكم أبي وأمي ! كذا والله كان آباؤكم . وقال : والفرزدق يقول في آخر عمره حين تعلق بأستار الكعبة وعاهد الله ألا يكذب ولا يشتم مسلماً :

ألم ترني عاهدت ربي وإنني ... لبين رتاج قائماً ومقام
على حلفة لا أشتم الدهر مسلماً ... ولا خارجاً من فيّ زور كلام[1]

« الاسكندرية »

(* * *)

(١) الحل خارج المواقيت من البلاد والحرم ما بين المواقيت المعروفة وإنما أراد أهل الحل والحرم (التبريزي)

(٢) انتصب عرفان على أنه مفعول له أي يكاد يمسكه ركن الحطيم لأجل عرف راحته (التبريزي)

(٣) لم يقل أحد في الهيبة أحسن منه (ابن قتيبة)

(١) من أبيات (الكتاب) قال الشنتمري : الشاهد فيه قوله ولا خارجا ونصبه لوقوعه موقع المصدر الموضوع موضع الفعل على مذهب سيبويه ، والتقدير عاهدت ربي لا يخرج من في زور كلام خروجا . ويجوز أن يكون قوله ولا خارجا منصوبا على الحال واللمعنى عاهدت ربي غير شاتم ولا خارج أي عاهدته صادقا . وهذا على مذهب عيسى بن عمر ، وقد ذكره سيبويه عنه ، ولا شاهد فيه على هذا التقدير

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم إليكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة في أثمانها ...

رائعة في ألوانها ...

فبادروا بأخذ طلباتكم